

ليس فيها من كثرة الصنع ودقة التراكيب شيء ، فتجىء وهى الغاية فى الرشاقة وخفة الروح ، وترى الطرب بها يهز الأعطاف ويسحر الألباب .

وأكبر الظن أن الذين قالوا بتفاوت بلاغة القرآن ، وأن منه ما يعلو بعضه على بعض ، وإن كان الجميع معجزا ، إنما تأثروا برأى الشيخ فى قول الجاحظ وما يشبهه ، وإنهم رأوا فى بعض آى القرآن وسوره نظما لم يعتمد أكثر من التعاطف ، ونسق المفردات والجمل . نسقا فقالوا إن هذا النظم أقل بلاغة مما اعتمد الدقة والتفنن فى التأليف والنظم ، ومن العجب أن هذا القول يكاد يلقى الإجماع عند علماء البلاغة .

ونحن نخالف فى ذلك أشد الخلاف ، ونرى أن بلاغة القرآن فى مستوى واحد وفى درجة سواء ، وإن ما جاء منه فى معرض التعاطف والنسق ، لا يقل بلاغة فى معناه وموقعه وفى الغرض الذى سيق له . عن ذلك الذى جاء دقيق النظم ، عجيب الصنع مفتن الأسلوب ، وأن الأول عليه من الإشراق والبهجة ، ومن الرونق والبهاء مالا يقل بلاغة وسحرا عن الثانى وافتنانه . نعم لو قالوا إن القرآن درجات فى الصياغة والنظم . لقلنا : صدقوا وأصابوا . ولما استطعنا أن ننكر عليهم ذلك لأنه ظاهر مكشوف . فاما التفاوت فى البلاغة بناء على التفاوت فى النظم . فلا ، لان البلاغة كما قلنا ليست هى النظم وحده حتى تتفاوت بتفاوته ، وتجىء درجاتها وفق درجاته ، وإنما دقة النظم عنصر من عناصرها ، ولها غيره عناصر أخرى . كما سبق بيانه . لانتقل عنه شأننا فى الحسن وكثرة الرونق ، وهزا القلوب وعطف الأسماع ، وخذ مثلا . قول الله تعالى فى سورة النبأ : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً مُّجَا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ (١) . فمن ذا الذى يستطيع أن يقول فى هذا النظم إنه أقل بلاغة من قوله تعالى فى سورة الليل ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَآتَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ لان الأول خال من الصنعة التى فى الثانى ، وأنه لم يحو ما حوى

(١) الآيات ٦ - ١٦ (٣) ص ٣١٠ .

(٢) الآيات ٥ - ١٠ .